شرح

رسالة العبودية

لفضيلة الشيخ

خالد بن عبد الله المصلح

الدرس السابع

www.almosleh.com

بسم الله الرحمن الرحيم

(قال الخليل –عَلَيْهِ السَّلَامُ–: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧)﴾[(١)]. فالعبد لا بد له من رزق، وهو محتاج إلى ذلك. فإذا طلب رزقه من الله صار عبداً لله فقيراً إليه، وإن طلبه من مخلوق صار عبداً لذلك المخلوق فقيراً إليه. ولهذا كانت مسألة المخلوق محرمة في الأصل، وإنما أبيحت للضرورة، وفي النهي عنها أحاديث كثيرة في الصحاح والسنن والمسانيد، كقوله –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: ((لا تزال المسألة بأحدكم، حتى يأتي يوم القيامة وليس في وجهه مزعة لحم))[(٢)]، وقوله: ((من سأل الناس وله ما يغنيه جاءت مسألته يوم القيامة خدوشاً، أو خموشاً، أو كدوشاً في وجهه))[(٣)]، وقوله: ((لا تحل المسألة إلا لذي غُرْمٍ مفظع، أو دم موجع، أو فقر مدقع))[(٤)]، وهذا المعنى في الصحيح، وفيه أيضاً: ((لأن يأخذ أحدكم حبله فيذهب فيحتطب؛ خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه))[(٥)].

وقال: ((ما أتاك من هذا المال، وأنت غير سائل ولا مشرف فخذه، وما لا فلا تتبعه نفسك))[(٦)]. فكره أخذه مع سؤال اللسان، واستشراف القلب.

---

(١) سورة : العنكبوت (١٧).

(٢) البخاري، كتاب الزكاة، باب من سأل الناس تكثراً، رقم: (١٤٧٥)،ومسلم، كتاب الزكاة، باب كراهة المسألة للناس، رقم: (١٠٤٠) من طريق حمزة بن عبدالله بن عمر عن أبيه.

(٣) أحمد(٣٦٦٦)، والترمذي، كتاب الزكاة، باب ما جاء فيمن تحل له الزكاة، رقم: (٦٥٠)، والنسائي، كتاب الزكاة، باب حد الغنى، رقم: (٢٥٩٢)، وأبو داود، كتاب الزكاة، باب من يعطى من الصدقة وحد الغنى، رقم: (١٦٢٦)، وابن ماجه، كتاب الزكاة، باب من سأل عن ظهر غنى، رقم: (١٨٤٠) من طريق محمد بن عبدالرحمن بن يزيد عن أبيه عن عبدالله بن مسعود، قال الترمذي: حديث ابن مسعود حديث حسن.

(٤) أحمد(١١٧٢٤) من طريق عبد الله عن أنس.

(٥) البخاري، كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة، رقم: (١٤٧١) من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن الزبير بن العوام.

(٦) البخاري، كتاب الزكاة، باب من أعطاه الله شيئاً من غير مسألة ولا إسراف، رقم: (١٤٧٣)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب إباحة الأخذ لمن أعطي من غير مسألة ولا إشراف، رقم: (١٠٤٥) من طريق الزهري عن سالم بن عبدالله بن عمر عن عبدالله بن عمر عن عمر بن الخطاب.

وقال في الحديث الصحيح: ((من يستغن يغنه الله، ومن يستعفف يعفُّه الله، ومن يتصبّر يصبره الله، وما أعطي أحد عطاءً خيراً وأوسع من الصبر))[1].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأصلي وأسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد:

فكل هذه الأحاديث تدور على معنى واحد، ذكره المؤلف -رحمه الله- في أول الكلام، وهو قوله: **(ولهذا كانت مسألة المخلوق محرمة في الأصل)** يعني: الأصل فيها التحريم، فإذا شككت: هل يجوز لك أن تسأل أو لا تسأل، فارجع إلى الأصل، والأصل التحريم.

يقول: **(وإنما أبيحت للضرورة)**. ثم ذكر الأحاديث الواردة في ذلك، وكلها تحذر وتنهى عن المسألة: **((لا تزال المسألة بأحدكم حتى يأتي يوم القيامة، وليس في وجهه مُزْعة من لحم))**. وذلك أن السائل يَكُدُّ وجهه، ويريق ماء وجهه للمسؤول؛ فلذلك كان محل العقوبة في السؤال المحرم الوجه الذي تحصل به مواجهة الناس، وطلبهم والإلحاح عليهم. ثم قال: **((من سأل الناس وله ما يغنيه جاءت مسألته يوم القيامة خدوشاً، أو خموشاً، أو كدوشاً في وجهه))**. كل هذا يبين ما مر في الحديث السابق، حيث إنه في الحديث السابق بين لنا منتهى ما تبلغ به المسألة من صاحبها، إذا كانت غير جائزة، وفي هذا بيّن لنا أن الأمر يبدأ خدوشاً، و هي أشياء يسيرة، وخموشاً وكدوشاً في الوجه. ثم بعد ذلك ينتهي الحال ويؤول الأمر بصاحب المسألة المحرمة إلى أن يأتي يوم القيامة وليس في وجهه مزعة من لحم.

والظاهر في التفاوت بين هذين، هو تفاوت الناس في المسألة: فمن أكثَرَ بلغ به الحال ما ذكره في الحديث الأول، ومن كانت مسألته قليلة لكنها محرمة فإن له نصيباً من المؤاخذة، في قوله: خدوشاً، أو خموشاً، أو كدوشاً.

ثم قال: **((لأن يأخذ أحدكم حبله؛ فيذهب فيحتطب، خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه))**. وذلك أن المتطلع إلى ما في أيدي الناس، بين أن يُمْنَعَ، وبين أن يعطى، فهو دائر بين أمرين،

---

[1] البخاري، كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة، رقم: (١٤٦٩)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب فضل التعفف والصبر، رقم: (١٠٥٣) من طريق الزهري عن عطاء بن يزيد الليثي عن أبي سعيد الخدري.

حاله حال مظنون الحصول. بينما أخذه الحبل واحتطابه، ثم بيعه لهذا الاحتطاب، طريق مؤكد لتحصيل الرزق. فأمره النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بالطريق المتأكد في حصول النتيجة، أو المتيقن نتيجته، وهاه عن سلوك ما هو مظنون؛ لما فيه من المذلة، ولما فيه من احتمال حصول المطلوب وعدم حصول المطلوب.

ثم قال: **((ما أتاك من هذا المال وأنت غير سائل))** يعني: لا تسأل بلسانك، لم تسأل المال بلسانك **((ولا مشرف فخذه))** يعني: وما أتاك وأنت غير مشرف، يعني متطلع بقلبك، ولو لم يتكلم لسانك فخذه. وفي غير هاتين الحالين، ينبغي لك الامتناع.

وهذا يا أخي يدلك على قطع المسألة، وأن قطعها ابتداء بالقلب، وانتهاء باللسان. فينبغي للمؤمن أن يقطع المسألة، وأن لا يجعل لها سبيلاً، ولا طريقاً إلى لسانه، ولا إلى قلبه. و يؤكد هذا ما في الحديث الآخر، حيث قال: **((من يستغن يغنه الله، ومن يستعفف يُعِفَّهُ الله))**. وعلى هذين يكمل الغنى: من يستغن بقلبه فلا ينظر إلى ما عند غيره، ومن يستعفف بلسانه فيحفظه عن السؤال والطلب. وهذان الوصفان هما القيدان في الحديث السابق: وأنت غير سائل، ولا مشرف، فغير سائل يقابله قوله: **((من يستعفف يعفه الله))**؛ لأن العفاف في اللسان، يستعفف بلسانه أن يسأل ويطلب، ومن **((يستغن))** والغنى في القلب. **((فمن يستغن يغنه الله، ومن يستعفف يعفه الله))**. وانظر كيف بدأ بالغنى؛ لأن الأصل فيه، وهو غنى القلب، فإنه إذا اغتنى القلب، امتنع اللسان من السؤال. لكن إذا افتقر القلب فلا بد أن تظهر فلتات المسائل على الألسنة. ولذلك ينبغي للإنسان أن يعتني بقلبه، فيغلق عليه التشوف، والتطلع إلى ما في يد غيره. وقد أمر الله –جل وعلا– أطهر الناس قلباً بذلك فقال: **﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾** ثم قال: **﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾**(١). فنهاه عن النظر إلى ما في أيدي الناس، وأمره بالنظر إلى ما في يده –جل وعلا– قال: **﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾**. خير في الحال والمآل، وهو أبقى في المآل؛ لأن الله –جل وعلا– يُنعم على من لم يمد عينه إلى ما في أيدي الناس بالقناعة، ويمن عليه بعظيم الأجر في الآخرة.

ولذلك يا إخواني لا بد أن نربي أنفسنا على هذا، وأن نأخذها بالحزم في هذا الأمر، فإن النفس كالطفل تماماً: إذا لم تهذبه، وتشذبه، وتمنعه مما يضره شب على العوائد القبيحة، ونشأ على الاستجابة

---

(١) سورة : طه (١٣١).

لدواعي النفس، من الميل إلى الشهوات والملذات. لكن إذا حزمت نفسك وربيتها، وحملتها على أطايب الأقوال والأعمال أعانك الله –جل وعلا–، فإنه من يستغن يغنه الله، ومن يستعفف طلباً لرضا الله يعفه الله–جل وعلا– ويحفظ لسانه من المسألة.

ثم قال: **((ومن يتصبر يصبره الله))**. بعد أن ذكر غنى القلب، وعفاف اللسان، ذكر الحامل عليهما، وهو الصبر. ثم بين عظيم منزلة الصبر، فقال: **((وما أعطي أحد عطاءً خيراً ولا أوسع من الصبر))**. الصبر رأس الدين؛ لأن به يحصل للإنسان كمالات الدنيا وفوز الآخرة: ﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠)**﴾[1]. فقد جاز أجرهم قانون التقدير والحساب، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، سبحانه وبحمده، فينبغي للمؤمن أن يعود نفسه على الصبر. **((من يتصبر))** معنى هذا: أنه يتحمل ويأتي على نفسه. ليس أمر الصبر سهلاً يدركه كل أحد، إنما فيه معاناة، وفيه ما تكرهه النفس وتأنف منه، لكن عواقبه أحلى من العسل، كما قال الشاعر:

الصبر مثل اسمه مـــر مذاقتـــه   لكن عواقبه أحلى من العسل

فإذا نظر الإنسان إلى العاقبة والمآل استعان الله –جل وعلا– وأعانه على تحصيل أسباب الصبر فإنه خير عطاء؛ لأن الإنسان مهما فتح عليه في الدنيا، لن يدرك ما يريد وما يشتهي. خذ مثلاً مطالب الإنسان في المال، كلما أعطيت طلبت الزيادة، مطالب الإنسان في النكاح، كلما تمكن من ملاذّ المناكح، تشوفت نفسه للزيادة، وهلم جرًّا، لا تنتهي الرغبات والشهوات، إلا في الدار التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. عند ذلك يدرك الإنسان مشتهاه ومنيته ومبتغاه.

فينبغي للمؤمن أن ينفذ بصره هذه الدنيا، وأن يخلفها وراءه، وهذا الكلام نحسن أن نتكلم به، لكن نسأل الله أن يعيننا عليه؛ لأنه في الحقيقة عنوان سعادة العبد إذا تحقق له الصبر، كما قال الله –جل وعلا– في سورة العصر في بيان منزلة الصبر، قال: ﴿**إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)**﴾[2]. فينبغي لنا أن نستعين الله في ذلك، وليبشر من استعان الله؛ فإنه موعود بالإعانة، كما في هذا الحديث.

---

(١) سورة : الزمر (١٠).

(٢) سورة : العصر (٢-٣).

ثم ذكر المؤلف -رحمه الله- وجهاً ثانياً، استدل به على أن الأصل في المسألة النهي، فقال -رَحِمَهُ اللَّهُ-:

(وأوصى خواص أصحابه أن لا يسألوا الناس شيئاً، وفي المسند أن أبا بكر-رضي الله عنه- كان يسقط السوط من يده، فلا يقول لأحد: ناولني إياه، ويقول: إن خليلي أمرني أن لا أسأل الناس شيئاً)) (١).

رضي الله عنهم، ما أعظم امتثالهم لأمر رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-. هذا أبو بكر -رضي الله عنه- ولعل هذا في وقت خلافته، ما ندري، الرواية لم تبيّن متى كان ذلك، والظاهر فيما يبدو أنه بعد وفاة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- **(كان يسقط السوط من يده)** ولعلّه راكب، أو ماشٍ **(فلا يقول لأحد: ناولني إياه)** أي أعطني إياه، مع أنه لو قال ذلك، وهو خليفة، لفرح الناس وتسابقوا لامتثال أمره، مع ذلك كان يأنف عن المسألة، ويستغني عنها **(ويقول: إن خليلي)** يعني رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعلى آله وَسَلَّمَ- **(أمرني أن لا أسأل الناس شيئاً)**. و**(شيئاً)** نكرة في سياق النهي، فتعم كل شيء، وهذا مما يؤكد أن النكرة في سياق النهي تفيد العموم، حيث فهمها أفصح الناس بعد النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- صحابته، فهموا منها العموم. نعم.

(وفي صحيح مسلم وغيره عن عوف بن مالك-رضي الله عنه- أن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بايعه في طائفة، وأسر إليهم كلمة خفية: أن لا تسألوا الناس شيئاً، فكان بعض أولئك النفر يسقط السوط من أحدهم، ولا يقول لأحد: ناولني إياه) (٢).

وإذا عوّد الإنسان نفسه على هذا أعين واستغنى عن الناس؛ لأنه في الحقيقة إذا قام الإنسان بشؤون نفسه، و لم يطلب من أحد شيئاً، لا في الدقيق، ولا في الجليل كف الله قلبه عن النظر إلى الناس، وكف لسانه عن مسألتهم.

وشهادة نثني بها على شيخنا الشيخ محمد العثيمين -رَحِمَهُ اللَّهُ- هو من أشد الناس امتثالاً لهذا الأمر، كان في دروسه، وفي حياته التي عاشرناه فيها -رحمه الله- من أقل الناس سؤالاً، يقوم بالأشياء بنفسه، ويذهب ويأتي، مع أن الناس قد يتسابقون إلى خدمته، من طلابه ومحبيه، ومع ذلك كان -

(١) مسند أحمد رقم (٦٢) بلفظ: (إن حبيبي...).

(٢) مسلم، كتاب الزكاة، باب كراهة المسألة للناس، رقم: (١٠٤٣) من طريق أبي إدريس الخولاني عن أبي مسلم الخولاني، عن عوف بن مالك الأشجعي.

رحمه الله- يعمل بهذا التوجيه النبوي وهو أن لا يسأل الناس شيئاً. إذا جاء أحد وقدم إليه أو أخذ منه، فهذا فضل وإحسان؛ لكنه ليس من المسألة، يعني: لم يكن هذا من سؤاله وطلبه. ومن عاشر الشيخ واقترب منه أدرك هذا من شأنه -رَحِمَهُ اللهُ- نسأل الله -عز وجل- أن يقدس روحه في جنات النعيم، وأن يتبِّعنا وإياكم أثر الصالحين.

(وقد دلت النصوص على الأمر بمسألة الخالق، والنهي عن مسألة المخلوق، في غير موضع، كقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (٧) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ (٨)﴾[١]. وقول النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لابن عباس رضي الله عنهما: ((إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله))[٢]. ومنه قول الخليل-عليه السلام-: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾[٣]. ولم يقل: فابتغوا الرزق عند الله؛ لأن تقديم الظرف، يشعر بالاختصاص والحصر، كأنه قال: لا تبتغوا الرزق إلا عند الله، وقد قال تعالى: ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾[٤]).

لما ذكر الله -جل وعلا- ما فضل به الرجال على النساء، قال -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-:**﴿وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ اللّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾**[٥].

ثم قال جل وعلا- في التوجيه إلى تحصيل الفضائل، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-: **﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾** يعني: لا ينبغي لكم أن تمتلئ قلوبكم رغبة فيما عند الناس من الفضائل التي منَّ الله بها عليهم، بل توجهوا إلى الله الذي بيده الخير، وإليه الخير،وإليه يرجع الأمر كله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، الخير كله في يديه -جل وعلا-، فمن رغب في خير من خير الدنيا والآخرة فليلجأ إلى الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- وليتوجه إليه، فإنه -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- قريب مجيب، وهذا سرّ التوجيه في آخر الآية، بعد ذكر التفاضل، قال: **﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾** . فإن الفضل بيد الله، ولا تمتلئ قلوبكم تشوفاً وتطلعاً إلى ما منَّ الله به على بعضكم دون بعض. وهذا يشمل تفضيل الرجال على النساء، ويشمل أيضاً مما

---

(١) سورة : الشرح (٧-٨).

(٢) أحمد (٢٦٦٤)، والترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب منه، رقم: (٢٥١٦) من طريق حنش الصنعاني عن ابن عباس.

(٣)سورة : العنكبوت (١٧).

(٤) سورة : النساء (٣٢).

(٥) سورة : النساء (٣٢).

يشمل تفضيل بعضنا على بعض في علم، أو مال، أو جاه، أو منصب، أو غير ذلك مما يحصل به التفاضل والتسابق في الدنيا.

فإنه ينبغي لك، إذا رأيت ما يعجبك في أخيك- من علم، أو مال، أو حفظ، أو فهم، أو بيان، أو غير ذلك مما تتطلع إليه نفسك- أن تلجأ إلى الله الذي وهبه، فإنه قادر على أن يهبك –جل وعلا–. وإذا عوّدت نفسك على ذلك لن تجد في نفسك غلاًّ، أو حسداً، أو ضغينة على أخيك المسلم؛ بل على العكس، ستجد أنك تفرح بمنة الله على غيرك؛ لأنّ منة الله على غيرك تظهر عظمة الرب الذي منَّ على هذا، ووهب هذا. فإن الله –جل وعلا– من أسباب الاستدلال عليه، عطاياه –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى– التي لا ينفك عنها الخلق.

والإنسان إذا ربّى نفسه على التعلق بالله –جل وعلا– والنظر إلى ما عنده، كُفي شرّاً عظيماً، وهُدي إلى راحة، وطمأنينة، وسكون بال، وأصبحت علاقاته، أخذه وعطاؤه، منعه وهبته، كلها منظوراً فيها إلى الله –عز وجل– ،كلها وفق أمر الله –جل وعلا–.

وقد قال شيخنا مرة من المرات، في مسألة الحسد: أنا أعجب ممن يحسد أخاه على العلم، كيف يتحاسدون، وهم كلهم خدام للشريعة؟

يعني: هذه كلمة في الحقيقة تقضي على ما في نفس الإنسان من تطلّع، يعني: إذا نظرت إلى ما عند أخيك من علم، ما عنده من فضل، ما عنده من نفع للناس، فلا تجد في صدرك عليه، بل افرح بذلك. هو يا أخي يخدم الشريعة، كما أنك تؤمل وتسعى إلى خدمة الشريعة. فكلنا خُدّام للشريعة، والواجب على من كان صادقاً في خدمة الشرع، أن يفرح بأن يخدم غيره الشريعة، وأن ينصر غيره دين رب العالمين، وأن لا يكون ذلك وقفاً على نفسه، حكراً عليه؛ بل يفرح بكل من يدعو الناس إلى بر، إلى خير، إلى هدى، إلى طاعة، ويكون ذلك مما يسر به، ويدعو به لصاحبه، لا يكون على العكس من هذا، يوغر صدره عليه، ويجد في نفسه من الضغينة والحقد عليه ما الله به عليم.

(والإنسان لا بد له من حصول ما يحتاج إليه من الرزق ونحوه، ودفع ما يضره، وكلا الأمرين شرع له أن يكون دعاؤه لله، فلا يسأل رزقه إلا من الله، و لا يشتكي إلا إليه، كما قال يعقوب –عليه السلام–: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾[1]).

(١) سورة : يوسف (٨٦).

والله تعالى ذكر في القرآن الهجر الجميل، و الصفح الجميل، و الصبر الجميل.

وقد قيل: إن الهجر الجميل هو هجر بلا أذى، والصفح الجميل صفح بلا معاتبة، والصبر الجميل صبر بغير شكوى إلى المخلوق. ولهذا قرئ على أحمد بن حنبل في مرضه: إنّ طاووساً كان يكره أنين المريض، ويقول: إنّه شكوى، فما أَنَّ أحمد حتى مات.

وأما الشكوى إلى الخالق، فلا تنافي الصبر الجميل. فإن يعقوب قال: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾[1]، وقال: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّهِ ﴾[2]).

قيل: إن البث هو الحزن العميق، أشد من الحزن، فيكون من باب عطف العام على الخاص. يعني: البث حزن مع تألم، وأما الحزن فهو حزن مجرد. هكذا فرّق بعضهم بين البث والحزن، وبعضهم قال: هو واحد، ويكون من أمثلة وشواهد عطف المتماثلات.

(وكان عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– يقرأ في الفجر بسورة يونس ويوسف والنحل، فمر بهذه الآية في قراءته، فبكى حتى سمع نشيجه من آخر الصفوف.

ومن دعاء موسى–عليه السلام–: اللهم لك الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان، وبك المستغاث، وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بك.

وفي الدعاء الذي دعا به النبي –صلى الله عليه وسلم– لمّا فعل به أهل الطائف ما فعلوا: ((اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي، اللهم إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدو ملكته أمري. إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، غير أن عافيتك أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن يترل بي سخطك، أو يحل علي غضبك. لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بالله)). وفي بعض الروايات: ((ولا حول ولا قوة إلا بك)) [3].

---

(١) سورة : يوسف (١٨).

(٢) سورة : يوسف (٨٦).

(٣) أخرجه: أبو القاسم الطبراني في كتاب "الدعاء" (١/٣١٥) من طريق محمد بن إسحاق عن هشام بن عروة عن أبيه عن عبدالله بن جعفر، قال في مجمع الزوائد(٦/٣٧): "رواه الطبراني وفيه إسحاق وهو مدلس ثقة وبقية ثقات"، وانظر : تاريخ الطبري(١/٥٥٤)، وسيرة ابن هشام(٢/٣٦٨).

هذا الدعاء فيه أعظم التضرع لله –عز وجل– من النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، وقد جمع هذا التضرع أنواعاً من التوسل:

جمع أولاً وصف حال السائل، فإن التضرع إلى الله –عز وجل– يكون بوصف حال السائل، ومنه قوله: ((**اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس**)). هذا تضرع وتوسل إلى الرب –جل وعلا– بأي شيء؟ بوصف حال السائل.

ويكون التضرع أيضاً بوصف حال المسؤول، وذلك في قوله: ((**يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي**)).

ثم عاد في السؤال والطلب إلى وصف حاله، وشدة افتقاره: ((**اللهم إلى من تكلني؟**)) يعني: إلى من تكل أمري؟ ((**إلى بعيد يتجهمني**)) وهم أهل الطائف ((**أم إلى عدو ملكته أمري**)) وهم أهل مكة، فكلهم آذاه –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعلى آله وَسَلَّمَ–.

ثم رجع وأظهر التجلد والصبر لقضاء الله وقدره، فقال: ((**إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي**)). يعني: إن لم يكن هذا الذي نزل بي، وهذا البلاء الذي حلّ بي، سببه غضبك عليّ؛ فلا أبالي، فهو من جملة ما ترتفع به الدرجات، وتعلو به، وتكفر به الخطايا. وهذا فيه غاية التسليم لقضاء الله وقدره، وأن العبد لا ينظر إلى المصيبة على أنها مصيبة نالته، وأصابت منه، إنما ينظر: هل هذه مصيبة سببها غضب وسخط، فعند ذلك تكون النقمة، عند ذلك تكون البلية. أما إذا كان هذا الذي نزل به تكفيراً، أو لم يقترن بغضب وسخط، فالأمر سهل؛ لأنه لا يخرج عن أن يكون تكفيراً للذنب، أو رفعاً للدرجات.

ثم قال: ((**غير أن عافيتك أوسع لي**)). وهذا استدراك، حتى يتبرأ من حوله وقوته، ولا يتعرض للبلاء، بعد أن بين أنه يصبر على قضاء الله، خشي أن يكون هذا من الاعتداد بقوة النفس، والاعتداد بما عند الإنسان من قدرة، فقال: ((**غير أن عافيتك أوسع لي**)) يعني: أوسع وأرحب من أن ينزل بي غضبك، أو أن ينالني سخطك، أو أن تشدد علي في البلاء.

((**أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة**)). ولا شك أن كل نور فهو من نور الله –جل وعلا–، كل نور يضيء السبيل، ويهدي الطريق، فهو من نور الله –جل وعلا– ولذلك وصف الله نفسه بالنور، ووصف كتابه بالنور، ووصف أولياءه بأنه آتاهم نوراً،

وأنهم على نور: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾[1]. والناس يتفاوتون في هذا النور تفاوتاً عظيماً، بقدر ما يكون معهم من التصديق، والإيمان، والقبول لما جاء به النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، كما قال الله –جل وعلا–: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا﴾[2]. ﴿وَلَكِن جَعَلْنَاهُ﴾ أي هذا الروح، وهو ما أنزله –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى– إلى نبيه، من الهدى، ودين الحق ﴿وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا﴾. يقول: **((أن ينزل بي سخطك))**. هذا المستعاذ منه، يعني المطلوب من هذه الاستغاثة، وهذه الاستعاذة، أن ينزل بي سخطك، أو يحل علي غضبك. ثم قال: **((لك العتبى حتى ترضى))**. لك العتبى، أي: لك الاعتذار، وطلب الرضا حتى يحصل رضاك **((لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك))** أي: لا تحول من هذه الحال الشديدة، التي أنا فيها، إلا بتحويلك وقوتك، فيه التبرؤ التام من كل حول وقوة، وكلة الأمر إلى الله –جل وعلا–.

وهذا يا إخواني، يحتاجه الإنسان، يحتاج الإنسان إلى أن يبث شكواه إلى رب العالمين، ومن بث شكواه إلى رب العالمين، فقد بثها إلى من بيده الأمر، الذي أمره إذا أراد شيئاً إنما يقول له: كن فيكون: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[3]. فسرعان ما يحصل له الفرج، وتنكشف عنه سدف الظلام التي أحاطت به، وتنكشف عنه الكروب، لكن الناس يغفلون عن هذا، وتجد أنهم يشكون إلى غير الله –جل وعلا– ما نزل بهم، يشكون الله إلى خلقه، ولو أنهم شكوا إلى ربهم، لوجدوا ربّاً برّاً، رؤوفاً، رحيماً، قريباً، مجيباً، سبحانه وبحمده.

ثم قال –رحمه الله–:

(وكلما قوي طمع العبد في فضل الله ورحمته ورجائه لقضاء حاجته ودفع ضرورته، قويت عبوديته له، وحريته مما سواه، فكما أن طمعه في المخلوق يوجب عبوديته له، فيأسه منه يوجب

(١) سورة : الأنعام (١٢٢).

(٢) سورة : الشورى (٥٢).

(٣) سورة : يس (٨٢).

غني قلبه عنه. كما قيل: استغن عمن شئت تكن نظيره، وأفضل على من شئت تكن أميره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره. فكذلك طمع العبد في ربه، ورجاؤه له يوجب عبوديته له، وإعراض قلبه عن الطلب من الله والرجاء له يوجب انصراف قلبه عن العبودية لله، لا سيما من كان يرجو المخلوق ولا يرجو الخالق، بحيث يكون قلبه معتمداً إما على رئاسته وجنوده وأتباعه ومماليكه، وإما على أهله وأصدقائه، وإمّا على أمواله وذخائره، وإمّا على ساداته وكبرائه، كمالكه ومَلِكه وشيخه ومخدومه، وغيرهم ممن هو قد مات أو يموت. قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا (٥٨)﴾[١].

وكل من علق قلبه بالمخلوقين أن ينصروه، أو يرزقوه، أو أن يهدوه؛ خضع قلبه لهم، وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك، وإن كان في الظاهر أميراً لهم، مدبراً لهم، متصرفاً بهم. فالعاقل ينظر إلى الحقائق لا إلى الظواهر، فالرجل إذا تعلق قلبه بامرأة، ولو كانت مباحة له، يبقى قلبه أسيراً لها، تحكم فيه، وتتصرف بما تريد، وهو في الظاهر سيدها؛ لأنه زوجها أو مالكها، و لكنه في الحقيقة هو أسيرها ومملوكها، ولا سيما إذا درت بفقره إليها، وعشقه لها، وأنه لا يعتاض عنها بغيرها؛ فإنها حينئذ تتحكم فيه تحكم السيد القاهر الظالم، في عبده المقهور الذي لا يستطيع الخلاص منه بل أعظم، فإن أسر القلب أعظم من أسر البدن، واستعباد القلب أعظم من استعباد البدن، فإن من استعبد بدنه واسترق وأُسر لا يبالي إذا كان قلبه مستريحاً من ذلك مطمئنّاً، بل يمكنه الاحتيال في الخلاص، وأما إذا كان القلب الذي هو ملك الجسم رقيقاً، مستعبداً، متيماً لغير الله؛ فهذا هو الذل، والأسر المحض، والعبودية الذليلة لما استعبد القلب.

وعبودية القلب وأسره، هي التي يترتّب عليها الثواب والعقاب. فإنّ المسلم لو أسره كافر، أو استرقه فاجر بغير حق، لم يضره ذلك، إذا كان قائماً بما يقدر عليه من الواجبات. ومن استعبد بحق، إذا أدى حق الله، وحق مواليه فله أجران. ولو أكره على التكلم بالكفر، فتكلم به وقلبه مطمئن بالإيمان لم يضره ذلك. وأما من استُعبد قلبه، فصار عبداً لغير الله؛ فهذا يضره ذلك، ولو كان في الظاهر ملك الناس.

---

(١) سورة : الفرقان (٥٨).

فالحرية حرية القلب، والعبودية عبودية القلب، كما أن الغنى غنى النفس. قال النبي –صلى الله عليه وسلم: ((ليس الغنى عن كثرة العرض، وإنما الغنى غنى النفس))(1). وهذا لعمر الله، إذا كان قد استعبد قلبه صورة مباحة. فأما من استعبد قلبه صورة محرمة، امرأة أو صبي؛ فهذا هو العذاب الذي لا يدانيه عذاب، وهؤلاء من أعظم الناس عذاباً وأقلهم ثواباً، فإن العاشق لصورة، إذا بقي قلبه متعلقاً بها، مستعبداً لها؛ اجتمع له من أنواع الشر والفساد، ما لا يحصيه إلا رب العباد، ولو سلم من فعل الفاحشة الكبرى، فدوام تعلق القلب بها بلا فعل الفاحشة، أشد ضرراً عليه ممن يفعل ذنباً ثم يتوب منه، ويزول أثره من قلبه).

ولذلك يجب على المؤمن أن يعلق قلبه بالله–سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى–. القلب يا إخواني وعاء، إذا ملئ بمحبة الله –جل وعلا– لم يكن فيه مكان لغيره، وإذا خلّط فيه الإنسان اضطربت حاله، وأصبح نَهْبًا لكل ما يتعلق به، من صورة، أو مال، أو غير ذلك مما يتعلق به الناس.

فالواجب على المؤمن أن يملأ قلبه بمحبة الله، ومن ملأ قلبه بمحبة الله فرّغ الله قلبه من كل شيء؛ لأن محبة الله تملأ القلب، وتمنع تعلقه بغيره، قال الله –جل وعلا–: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ﴾(2).

هذا المثل الذي ضربه الله –جل وعلا– هو مثل نوره –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى– في قلب عبده المؤمن، فإذا ملأ العبد قلبه بالرب، نظراً في صفاته، وتأملاً في أفعاله، ونظراً في أسمائه، وتدبراً في كتابه؛ لم يبق فيه تعلق لغيره، وهذا هو السعادة التامة. أسعد الناس أعظمهم تعلقاً بالله، أسعد الناس أقلهم تعلقاً بالمخلوقين، على اختلاف ما يتعلق به الناس. من الناس من يتعلق بالمال، منهم من يتعلق بالولد، منهم من يتعلق بالزوجة، ومنهم من يتعلق بالصور المحرمة، من النساء المحرمات أو المردان، أو غير ذلك. كل هذا مما يشغل القلب، ويشتته، ويضعف قوته، ويكون له أثر على عمل الإنسان، وتقواه، وصلاحه.

فينبغي للمؤمن أن يخلي قلبه من هذا. المسألة تحتاج إلى مقاومة، إلى مجاهدة، إلى دوام نظر، إلى ما يملأ القلب. إذا حصل للعبد ذلك؛ فإنه سيوفق، ويصرف عنه هذه الأمور، أما إذا أطلق في نفسه

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب الغنى غنى النفس، رقم ٦٤٤٦، ومسلم في كتاب الزكاة باب ليس الغنى عن كثرة العرض، رقم ١٠٥١ عن أبي هريرة .

(2) سورة : النور (٣٥).

الهوى، وتعلق بكل آت وذاهب؛ فإنه سيشتت قلبه في أودية كثيرة، ثم لا يجتمع على حق، ولا يقوم بخير، بل هو موتور، فاتر القوى؛ لتشتت همومه وتعلُّقاته.

والعبودية الحقيقية في عبادة الله –عز وجل–، كل من ظن أنه يتحرر بالتخفف من شريعة الله –عز وجل– فهو واهم، فإنّه من تخفف من شريعة الله؛ وقع في عبادة الشيطان، كما قال ابن القيم رحمه الله: **فروا من الرق الذي خلقوا له وبلوا برقّ النفس والشيطان**

(**فروا من الرق الذي خلقوا له**). ما هو الرق الذي خلقوا له؟ الرق لرب العالمين (**وبلوا**) أي وامتحنوا (**برقّ النفس والشيطان**). نعوذ بالله من الخذلان.

(وهؤلاء يشبهون بالسكارى والمجانين، كما قيل:

سُكْرَان سكر هوى وسكر مدامــة ومتى إفـــاقة من به سُكران

وقيل:

قالوا جننت بمن تهوى فقلت لهم العشق أعظم مــما بالمجـانين
العشق لا يستفيق الدهر صاحبه وإنما يصرع المجـنون في الحين

ومن أعظم أسباب هذا البلاء إعراض القلب عن الله، فإن القلب إذا ذاق طعم عبادة الله، والإخلاص له؛ لم يكن عنده شيء قط أحلى من ذلك، ولا ألذ ولا أطيب، والإنسان لا يترك محبوباً إلا بمحبوب آخر، يكون أحب إليه منه، أو خوفاً من مكروه، فالحب الفاسد إنما ينصرف القلب عنه بالحب الصالح، أو بالخوف من الضرر، قال تعالى في حق يوسف: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾(١). فالله يصرف عن عبده ما يسوؤه من الميل إلى الصور والتعلق بها، ويصرف عنه الفحشاء بإخلاصه لله.

ولهذا يكون قبل أن يذوق حلاوة العبودية لله والإخلاص له، تغلبه نفسه على اتّباع هواها، فإذا ذاق طعم الإخلاص، وقوي في قلبه انقهر له هواه بلا علاج. قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾(٢). فإن الصلاة فيها دفع للمكروه، وهو الفحشاء

(١) سورة : يوسف (٢٤).
(٢) سورة : العنكبوت (٤٥).

والمنكر، وفيها تحصيل المحبوب، وهو ذكر الله، وحصول هذا المحبوب أكبر من دفع ذلك المكروه. فإن ذكر الله عبادة لله، وعبادة القلب لله مقصودة لذاتها، وأما اندفاع الشر عنه فهو مقصود لغيره على سبيل التَّبع.

والقلب خُلق يحب الحق ويريده ويطلبه، فلما عرضت له إرادة الشر طلب دفع ذلك؛ فإنها تفسد القلب، كما يَفسد الزرع بما ينبت فيه من الدَّغَل، ولهذا قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا(١٠)﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى(١٥)﴾[2]. وقال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ﴾[3]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾[4]. فجعل –سبحانه– غض البصر، وحفظ الفرج، هو أقوى في تزكية النفس، وبيّن أنّ ترك الفواحش من زكاة النفوس، وزكاة النفوس تتضمن زوال جميع الشرور: من الفواحش، والظلم، والشرك، والكذب، وغير ذلك. وكذلك طالب الرئاسة والعلو في الأرض، قلبه رقيق لمن يعينه عليها، ولو كان في الظاهر مُقَدَّمَهُم والمطاع فيهم، فهو في الحقيقة يرجوهم ويخافهم؛ فيبذل لهم الأموال والولايات، ويعفو عمّا يجترحونه ليطيعوه ويعينوه. فهو في الظاهر رئيس مطاع، وفي الحقيقة عبد مطيع لهم. والتحقيق أن كليهما فيه عبودية للآخر، وكليهما تارك لحقيقة عبادة الله، وإذا كان تعاونهما على العلو في الأرض بغير الحق؛ كانا بمنزلة المتعاونين على الفاحشة أو قطع الطريق، فكل واحد من الشخصين– لهواه الذي استعبده واسترقه– مستعبَد للآخر.

وهكذا أيضاً طالب المال؛ فإن ذلك يستعبده ويسترقه، وهذه الأمور نوعان:

منها ما يحتاج العبد إليه، كما يحتاج إليه من طعامه، وشرابه، ومسكنه، ومنكحه، ونحو ذلك. فهذا يطلبه من الله، ويرغب إليه فيه، فيكون المال عنده يستعمله في حاجته، بمنزلة حماره الذي يركبه، وبساطه الذي يجلس عليه، بل بمنزلة الكنيف الذي يقضي فيه حاجته، من غير أن يستعبده فيكون هلوعاً، إذا مسه الشر جزوعاً، وإذا مسه الخير منوعاً.

---

(١) سورة : الشمس (٩-١٠).

(٢) سورة : الأعلى (١٤-١٥).

(٣) سورة : النور (٣٠).

(٤) سورة : النور (٢١).

و منها ما لا يحتاج العبد إليه، فهذا لا ينبغي له أن يعلق قلبه بها. فإذا تعلق قلبه بها صار مستعبداً لها، وربما صار معتمداً على غير الله، فلا يبقى معه حقيقة العبادة لله، ولا حقيقة التوكل عليه، بل فيه شعبة من العبادة لغير الله، وشعبة من التوكل على غير الله، وهذا من أحق الناس بقوله –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: ((تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار، تعس عبد القطيفة، تعس عبد الخميصة)) [1]. وهذا هو عبد هذه الأمور، فلو طلبها من الله فإن الله إذا أعطاه إياها رضي، وإذا منعه إياها سخط. وإنما عبد الله من يرضيه ما يرضي الله، ويسخطه ما يسخط الله، ويحب ما أحبه الله ورسوله، ويبغض ما أبغضه الله ورسوله، ويوالي أولياء الله، ويعادي أعداء الله تعالى.

وهذا هو الذي استكمل الإيمان، كما في الحديث: ((من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله؛ فقد استكمل الإيمان)) [2]

. وقال: ((أوثق عرا الإيمان: الحب في الله، والبغض في الله)) [3]. وفي الصحيح عنه –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: ((ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان)) [4]).

حديث: ((من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله؛ فقد استكمل الإيمان))؛ لأنه استكمل عمل الظاهر والباطن. فعمل الباطن في قوله: ((من أحب لله وأبغض لله)). فإن الحب والبغض محله القلب، وقوله: ((وأعطى لله ومنع لله)). هذا عمل الظاهر، فإذا كمَّل العبد عمل الظاهر والباطن فقد استكمل الإيمان. ثم انظر حيث ذكر أخص ما يكون، وهو عمل القلب، ثم ذكر أدنى ما يكون من التعلق، وهو المال، فقال: ((وأعطى لله ومنع لله)). ومن كان عبداً لله في أخص الأشياء وأدناها، فيما يتعلق بعمل القلب، وفيما يتعلق بالمال الذي هو مما يبذله الإنسان، لحفظ نفسه أو ولده،

---

(١) البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله، رقم: (٢٨٨٧) من طريق عبدالله بن دينار عن أبي صالح عن أبي هريرة.

(٢) رواه أبو داود في السنة/ باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه (٤٦٨١) عن أبي أمامة رضي الله عنه.

(٣) ابن أبي شيبة في المصنف (٣٤٣٣٨).

(٤) البخاري، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، رقم: (١٦) ، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، رقم: (٤٣) من طريق أبي قلابة عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم.

أو من يحب؛ فإنه دال على صدقه في إيمانه؛ لاستكمال خصال الإيمان، صغيرها وكبيرها، ظاهرها وباطنها.

قسم الشيخ الأمور التي يحصل بها التعلق إلى قسمين:

القسم الأول: ما يحتاج العبد إليه، قال: (**من طعامه، وشرابه، ومسكنه، ومنكحه، ونحو ذلك**). وهذا يكون النظر إليه يقول: (**فهذا يطلبه من الله، ويرغب إليه فيه. فيكون المال عنده يستعمله في حاجته بمنزلة حماره الذي يركبه**). وهل يكون الحمار في قلب العاقل البصير في القلب؟ أو يكون وسيلة لتحقيق المطلوب؟ لاشك أنه وسيلة لتحقيق المطلوب، لا يكون في قلبه يهتم به، وينظر إليه، ويراقبه ليل نهار، إنما ينظر إليه فقط لحصول حاجته وتحصيل مقصوده. يقول رحمه الله: (**بل بمنزلة الكنيف الذي يقضي فيه حاجته**) هذا أعلى الدرجات (**من غير أن يستعبده فيكون هلوعاً، إذا مسه الشر جزوعاً، وإذا مسه الخير منوعاً**).

القسم الثاني: مما تتعلق به النفوس، ما لا يحتاج العبد إليه، يقول: (**فهذا لا ينبغي له أن يعلق قلبه به**). بل ينبغي له أن يتخفف ويتقلل منه، وإذا كان في يده فليصرفه في طاعة الله –عز وجل–، يقول: (**فإذا علق قلبه به صار مستعبداً له، وربما صار معتمداً على غير الله، فلا يبقى معه حقيقة العبادة لله، ولا حقيقة التوكل عليه، بل فيه شعبة من العبادة لغير الله، وشعبة من التوكل على غير الله**). ومثل لذلك بقوله: ((**تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار، تعس عبد الخميصة، تعس عبد القطيفة**)). هذا لكونه تعلق بهذه الأشياء مع استغنائه عنها، وعدم حاجته لها؛ فصار تعلقه بها، ونظره إليها، كالعبودية لها، ولذلك أضاف العبودية لها في قوله: ((**عبد الدرهم، عبد الدينار، عبد القطيفة، عبد الخميصة**)). نعم.

(**وفي الصحيح عنه –صلى الله عليه وسلم–: ((ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار)). فهذا وافق ربه فيما يحبه وما يكرهه، فكان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأحب المخلوق لله لا لغرض آخر، فكان هذا من تمام حبه لله، فإن محبة محبوب المحبوب من تمام محبة المحبوب. فإذا أحب أنبياء الله وأولياء الله؛ لأجل**

قيامهم بمحبوبات الحق لا لشيء آخر، فقد أحبهم لله لا لغيره، وقد قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[1].

ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ﴾[2]. فإن الرسول يأمر بما يحب الله، وينهى عما يبغضه الله، ويفعل ما يحبه الله، ويخبر بما يحبّ الله التصديق به، فمن كان محبّاً لله لزم أن يتّبع الرسول، فيصدقه فيما أخبر، ويطيعه فيما أمر، ويتأسى به فيما فعل. ومن فعل هذا فقد فعل ما يحبه الله؛ فيحبه الله، فجعل الله لأهل محبته علامتين: اتّباع الرسول، والجهاد في سبيله.

وذلك لأنّ الجهاد حقيقته الاجتهاد في حصول ما يحبه الله، من الإيمان والعمل الصالح، ومن دفْع ما يبغضه الله من الكفر، والفسوق، والعصيان، وقد قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ﴾[3]. فتوعد من كان أهله وماله أحب إليه من الله ورسوله والجهاد في سبيله بهذا الوعيد. بل قد ثبت عنه –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– في الصحيح أنه قال: ((والذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين))[4].

وفي الصحيح أن عمر بن الخطاب–رضي الله عنه– قال له: يا رسول الله، والله لأنت أحب إلي من كل شيء، إلا من نفسي. فقال: ((لا يا عمر، حتى أكون أحب إليك من نفسك)). فقال: والله لأنت أحب إلي من نفسي. فقال: ((الآن يا عمر))[5].

فحقيقة المحبة لا تتم إلا بموالاة المحبوب، وهو موافقته في حب ما يحب، وبغض ما يبغض، والله يحب الإيمان والتقوى، ويبغض الكفر والفسوق والعصيان، ومعلوم أنّ الحب يحرك إرادة القلب، فكلما قويت المحبة في القلب طلب القلب فعل المحبوبات، فإذا كانت المحبة تامة، استلزمت إرادة جازمة

---

(١) سورة : المائدة (٥٤).

(٢) سورة : آل عمران (٣١).

(٣) سورة : التوبة (٢٤).

(٤) البخاري في الإيمان/باب حب الرسول ﷺ من الإيمان (١٥)، ومسلم في الإيمان/ باب وجوب محبة الرسول ﷺ (٤٤) عن قتادة عن أنس رضي الله عنه..

(٥) البخاري في الأيمان والنذور/باب كيف كانت يمين النبي ﷺ (٦٦٣٢) عن عبد الله بن هشام رضي الله عنه..

في حصول المحبوبات. فإذا كان العبد قادراً عليها حصّلها، وإن كان عاجزاً عنها، ففعل ما يقدر عليه من ذلك؛ كان له كأجر الفاعل، كما قال النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: ((من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شيء. ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الوزر مثل أوزار من اتبعه، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء)) (1).

الأجر فيمن دعا إلى الهدى، هو أجر الدلالة، لا أجر العمل. وكذلك فيمن دعا إلى ضلالة، الوزر وزر الدعوة إلى الضلالة، لا وزر العمل؛ لأن العمل لم يعمله، إنما دعا إليه، فالوزر والأجر في الحديث، هو وزر الدعوة إلى الضلالة فيمن دعا إلى ضلالة، وأجر الدعوة إلى الهدى فيمن دعا إلى الهدى.

(وقال: ((إن بالمدينة لرجالاً، ما سرتم مسيراً، ولا قطعتم وادياً، إلا كانوا معكم)). قالوا: وهم بالمدينة؟ قال: ((وهم بالمدينة، حبسهم العذر)) (2)).

وهذا شاهد لما ذكره المؤلف –رَحِمَهُ اللهُ– من أن العبد إذا كان ناوياً لعمل الخير، لكنه عجز عنه، ففعل ما يقدر عليه من ذلك؛ كان له أجر كأجر الفاعل. فهؤلاء قوم لم يتمكّنوا من الخروج لعذر، حبسهم المرض، أو حبسهم العذر كما في هذه الرواية؛ كتب الله لهم الأجر كاملاً وافياً؛ لأنهم عملوا ما يستطيعون، وهو عمل النية، والقصد، والرغبة الصادقة في موافقة النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– والخروج معه، والجهاد في سبيل الله، فلما وافقوه بقلوبهم، وتخلفت أجسامهم؛ كتب الله لهم الأجر؛ لما كان لهم من العذر المانع من الخروج.

(1) رواه مسلم في العلم/باب من سن سنة حسنة أو سيئة...(٢٦٧٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه..

(2) مسلم، كتاب الإمارة، باب ثواب من حبسه عن الغزو مرض أو عذر آخر ، رقم ٣٥٣٤ من حديث جابر